بنية النّص و نقده عند عمرو بن بحر الجاحظ

د. محمودي عبد الكريم

جامعة الجزائر2

ملخص باللغة العربية: من القضايا النّقدية التي نالت حظا وافرا من اهتمامات أبي عثمان الجاحظ، وشغلت حيزا من كتاباته قضية الدلالة وعلاقتها بالشكل في الأدب، وهو لم يخص هذه القضية بمؤلّف، لكنّه لم يتأخر في إصدار أحكامه وإبداء آرائه، والتّعبير عن ملاحظاته حولها، ولذلك عالجت في هذا المقال نظرة الجاحظ حول الاتساق(الشكل) و الانسجام(الشكل و علاقته بالدّلالة) في النّص،أي حول المعنى وعلاقته بالدّلالة مبرزا أصناف الدلالات عنده،و وصاياه حول المعنى، وكيف تحدث الملائمة بين الشكل و الدلالة، لأنه صاحب نظرية المعاني المطروحـة.

الكلمات المفاتيـح باللغة العربية:

البنية، النقد ، النص ، الأدب ، الجاحظ

ملخص باللغة الانجليزية:

From the monetary issues that have received a lot of concerns Al jahidh occupied a part of his writing consistency and harmony in the text Meaning and its relation to the word in literature. And he did not belong to the case of the author. But he did not delay in issuing his judgments and expressing his views. And to express his observations about it. In this article .I have taken a closer look at consistency and harmony in the text according to Aljahidh.

الكلمات المفاتيح باللغة الانجليزية:

.TEXT. LITEZATURE.AL JZHIDH .THE STRUCTURE . CRITICISM

1- مقـدمـة:

يُعتبر الجاحظ من أوائل النّقاد الّذين عالجوا مسألة اللّفظ والمعنى،نظر إليها نظرةً دقيقةً لأنّ هذه القضية من أهم القضايا الّتي اهتم بها النّقاد والأدباء وفلاسفة الجمال،ولها علاقة وطيدة بكل القضايا النّقديّة الأخرى على غرار ثنائية الطبع والصّنعة، والقدم والحداثة، وغيرها، فكل هذه القضايا متضمّنة لثنائية اللّفظ والمعنى فاللّفظ ما يُنطق بالكلام والمعنى مدلول أو مقصد الكلمة من الأشياء و المشاعر و الأحاسيس فهي أساس للعمليّة النّقدية لأنّها تعالج بنية النّصّ الأدبيّ، يهدف هذا المقال إلى إبراز نظرة الجاحظ إلى كيفية حدوث الاتساق و الانسجام في النّص الأدبي و كل ما له علاقة بهما، لأنّ هذين المصطلحين اهتم بهما النقاد كثيرا في العصر الحديث، لكن نجد لهما جذورا في العصر القديم.

2 ـ بنية النص الأدبي عند الجاحظ:

يقف الجاحظ عند هذه القضية وقفة خاصة تدعونا إلى التّأمل من أجل فهم المعنى الحقيقيّ الّذي يرمي إليه بمقولته الشّهيرة " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربيّ و العجميّ ....وإنّما الشّأن في إقامة الوزن و تخيّر اللّفظ وسهولة المخرج ،..فإنّما الشّعر صناعة و ضرب من النّسج و جنس من التّصوير"(1)،فالشّعر في نظر الجاحظ يُبنى و يُصنع من الكلمات الّتي يجب على الشّاعر أن يتخيرّها، و لا يُنسج بالمعاني فهي مطروحة في الطريق لدى العربي والعجميّ فصعوبة الشّعر تكمن في إقامة الوزن و هذه النّقطة هي الّتي تفرق بين الشّعر و النّثر فالشعر كلام موزون مقفى دال على معنى،والنّثر هو كلام غير موزون ،ينقسم إلى قسمين نثر عادي وهو النثر الّذي يتداول بين النّاس في الشّوارع و الأسواق، وعند قضاء الحاجات أمّا النّثر الفنيّ هو الّذي يُكتب من ذوي الخبرة في الأدب و البلاغة،يخضع لقوانين البلاغة و النّحو و الصّرف،و يوضح الجاحظ بأنّ الشّعر يجب أن تكون ألفاظه سهلة المخارج،حتى لا ينفر منها

السّامع،أي خالية من التّعقيد اللّفظي، فهو يُشبّه الشّعر بالنّسج والصّياغة و الرّسم (التّصوير)، فنجده يبرز أنّ المعاني غير محدودة ،بينما الألفاظ تكون محدودة أي ينتصر للفظ مع معناه و يجعل له الشّأن في الشعر ،وذكر(كثرة الماء) بعد سهولة المخرج ويقصد بها خروج هذه الألفاظ مطبوعة غير متكلفة في صور جيّدة من حيث البناء اللّغويّ، فنص الجاحظ يقودنا إلى أنّه ليس من أنصار الألفاظ على المعاني و لم يفصل بينهما" بل أنّه يعني بالنّص بكل ما يحمله من معانٍ عبّر عنها بألفاظ وأساليب و أوزان، فالنصّ الجيد هو ما كانت أفكاره ومعانيه جيّدة مقبولة في النّفس،وكان أسلوبه جميلا مؤثرا، وإنّ الاهتمام باللّفظ من دون المعنى يُصيبه الخلل ويخرجه عن دائرة التّأثير، فقد أدرج في رأيّه عناصر النّصّ الأدبيّ المتمثلة في(الوزن، تخيّر اللّفظ،سهولة المخرج،كثرة الماء،صحة الطبع،جودة السّبك وقد قرنها بالمعنى في أكثر من موضع "(2).

فالجاحظ عندما يركز على اللّفظ ليس غايته تفضيل اللفظ على المعنى،أو التّقليل من شأن المعاني وإنّما الغاية هي تحفيز الأدباء و الكُتّاب على حسن تداول المعاني وإظهارها في أبهى صورة وأسهل مخرج لأنّ حسن المعاني يأتي من حسن اختيار الألفاظ وتوظيفها ونسجها كما أنّ الخلل والعيب لا يتسرب إلى المعاني إلا من خلال الألفاظ الّتي تحملها، وهذا من الأسباب الّتي جعلت الجاحظ يحتفل باللّفظ من أجل ألاّ يجري الأدباء وراءها غير مهتمين بأي لفظ حُملت أو بأي صورة ظهرت، وللمعنى أيضا" أثره الّذي لا يجحد على روعة هذا الأدب و جماله، لعلّ الّذي جعله يصّرح بهذا الكلام جعل الكاتبين ينظرون إليه على أنّه من أنصار اللّفظ هو ما رآه في عصره من العناية الزّائدة والاهتمام بالكثير من المحسنات البديعيّة و الإكثار منها و جري كثير من الكُتّاب و الشّعراء وراءها، تاركين العبارة الفخمة و اللفظ المعبّر،والأسلوب المطبوع الرّصين وطغيان ذلك على الأدب"(3) فهو يولي أهميّة للمعنى واللّفظ فهما ضروريان لعمليّة الإبداع الأدبي فالمعنى الشريف لا يقترن إلاّ باللّفظ البليغ حيث يقول"أحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه،وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة و غَشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ،وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا واللّفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيد عن الاستكراه،ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة "(4).

يُبين الجاحظ من هذا القول أنّ الإنسان قد يُعبّر عن أي شيء بألفاظ قد تكون مستكرهة، أو تحتوي على تنافر وتعقيد، فكل منهما يلحق بالقارئ أو المستمع النفور من هذا الأدب،وقد يساهم في كرهه للإبداع الأدبي،لأنّه كثير الألفاظ و قليل المعاني فيجب أن تكون العبارة الأدبيّة الجميلة قليلة اللفظ كثيرة المعنى،وهذا الأخير ظاهر في لفظها و نسجها، بعيدة عن الاستكراه وخالية من التّكلف فتنفع هذه الألفاظ الإنسان،ما ينفع الغيث في التربة الكريمة التي تعطي أكلها حيث يقول"ومتى شاكل-أبقاك الله- اللفظ معناه وأعرب عن فحواه و كان لتلك الحال وفقا،ولذلك القدر لفقا وخرج من سماجة الاستكراه،و سلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع و بانتفاع المستمع،وأجدر أن يمنع جانبه من تناول

الطاعنين، و يحمي عرضه من اعتراض العائبين،و إلا تزال القلوب به معمورة، و الصدور مأهولة"(5)،يؤكد الجاحظ هنا أنّ اللفظ يحمل قدرا كبيرا من الإيحاء بمعناه وتغييره عن صورته يفقده القدرة على الإمتاع و التّأثير لأنّه هو الفائدة التي يحملها الكلام في ذهن المستقبل عندما يكون موافقا لمقتضى الحال.

فالجاحظ ينظر إلى النّص الأدبي نظرة متكاملة"كلية لا يهمل فيها شيء من الأجزاء، لذا بدأ بالصوت ثم اللفظ ثم المعنى ثم الصورة،وصولا إلى النظم الذي يمثل(كلية النص الشعري عند الجاحظ)وفي سبيل ذلك تجده يتحدث عن الصوت أو الحرف وبين أهميته،ثم انتقل إلى اللفظ ثم المعنى،ثم الصورة لكي يجنب القائل أيّ ضعف و يساعده إلى قبول المتلقي واستحسانه"(6)،نفهم من هذا القول أنّ الجاحظ نظر نظرة كلية للنص الشعري من كل الجوانب ليس فقط اللفظ، حيث اعتنى بالصورة واللفظ والمعنى، وفسّر العلاقة بينهما وهي علاقة تطابق أي مطابقة اللفظ لمعناه، وقد ذكر في باب البيان الألفاظ و أبان عن فضلها في تأدية المعنى فنقل عن بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني أنّ" المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم...مستورة خفية، و بعيدة وحشية ...لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، و لا حاجة أخيه وخليطه...إنما يحي بتلك المعاني ذكرهم لها و إخبارهم عنها واستعمالهم إياها،وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم و تجليها للعقل."(7)

فالجاحظ لم يفرق بين اللفظ و المعنى في التأثير على نفس الإنسان من قراءة العمل الأدبي، سواء كان هذا التأثير على نفس الإنسان من قراءة العمل الأدبي، تأثير حسنا أو سيئا فيقرر أنّ" سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني"(8)،أي المعاني منها الشريف و الكريم ومنها الذي يدخل في القلب،ومنها ما لا يدخل في القلب،فهو من دعاة التسوية بين اللفظ و المعنى حيث يقول"ومن علم حق المعاني أن يكون الاسم له طبقا، و تلك الحال له وفقا ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا ولا مضمنا،يكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده."(9) فالمعنى يأتي أولا ثم يطلب له اللفظ الذي يناسبه ويؤديه.

3 ـ أصناف الدّلالات عند الجاحــظ:

يقسم الجاحظ أصناف الدلالات إلى (اللفظ، الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم النصبة).

3 -1- اللّفـظ:

يعد اللفظ في نظر الجاحظ" وسيلة أخرى من وسائل البيان و هو الكلام المنطوق الذي يعتبره إشارة و دلالة ، وأنه وسيلة تواصل و تعبير ،تواصل بين أفراد المجتمع، وتعبير عن أفكار و مشاعر هؤلاء الأفراد، لكن اللفظ يعد أصلا اشتق منه وسائل البيان الأخرى ، ومعناه الجاحظ يجعل اللغة مكانا متميزا بين مجموع وسائل التّواصل الخمس الّتي حددها"(10)،فاللفظ وسيلة لاتصال الإنسان مع غيره،وهو تعبير عنه فهو بيان للإنسان،أما مضمون اللفظ فهو دلالته للاسم الذي وضع له،أو أريد به، في وظيفة هذا اللفظ تكون مقصورة على المعنى، فعن طريق الألفاظ

تتشكل اللغة التي يعبّر بها كل قوم عن مقاصدهم،هذه اللغة جعلها الجاحظ في المرتبة الأولى لوسائل الاتصال،فاللفظ أو العلامة اللغوية المنطوقة حُظيت باهتمام كبير و عناية خاصة في كتابه" البيان و التبيين" لأنّه هو أساس أصناف الدلالات عنده.

3 ـ 2 ـ الإشـارة:

نعني بالإشارة" التي يقوم بها الإنسان بواسطة جوارحه،وهو يريد أن يعبّر بها عن مكنون نفسه ومحتوى شعوره"(11)،وتنقسم إلى قسمين: الأول هو" الذي تشترك فيه الإشارة مع اللفظ لتساعده وتعينه على مستوى شكله أي أنّ الإنسان حين يقول مثلا:نعم، أولا،و يحرك ليده، فتكون الإشارة في هذه الحال وسيلة تعبيرية موصولة بسلسلة الكلام."(12) فالإشارة هنا تساعد المتكلم على تقوية المعنى،لأنها تتبع اللفظ، وتكون منفصلة عنه، من حيث أنّ اللفظ ناتج عن جهاز النطق للإنسان،في حين تكون الإشارة بتحريك الحواجب مثلا،أو تحريك الأعناق وقلب جلدة الوجه، فهي تتبع اللفظ فيما يخص معناه و تختلف عنه من الناحية الشكلية.

غير أنّ الإشارة تكون منفعتها قاصرة على الزمن الذي استخدمت فيه و المتلقين الذين شهدوها، بينما اللفظ تكون منفعته طويلة المدى، فقد يكون الكلام بليغا و جميلا لكن نقصانه لهذه الحركات تنقص من قيمته الجمالية، أمّا القسم الثاني:من أقسام الإشارة" فينشأ من أنها تستطيع أن تنفصل انفصالا مطلقا عن اللفظ الذي تساعده وتتصل به،فتعد تابعة له في أحيان كثيرة،وانفصالها هذا نابع أصلا من أنّ وحداتها المكونة التي هي الحركات المختلفة، ليست من نفس المادة التي تتكون منها وحدات الكلام"(13) فالإشارة هي ترجمان للفظ ومعين له كما أنها تزيد قوة في البيان ووضوحا في الدلالة وبالتالي تعوضه النقص الذي يعاني منه،فعن طريق هذه الإشارات تجعل اللفظ يرتقي من مرتبة البيان إلى مرتبة التبيين من حيث أنها" مصطلح جمالي يقتصر على كونه لمحة باللفظ الموجز تدّل على كثافة في معنى الكلام و عمق في مؤداه."(14)

3 ـ3 ـ العقـد:

وهذه الدلالة الثالثة من الدلالات البيانية التي ذكرها الجاحظ و هو" البيان بالحساب يتم بغير اللفظ أو الخط، ومعناه أنّ للحساب ثلاث وسائل تبينه وهي: اللفظ و الخط والعقد،أما الوسيلة الأولى فغير خارجة عن لغة الكلام ما دمنا نعتمد فيها لإقامة الحساب و إظهاره على المادة الصّوتية و الوسيلة الثانية تتم بها عمليات الحساب و التعامل بين الناس في شؤونهم التجارية و الفلاحية والاقتصادية هي الخط أو الكتابة ،أما الوسيلة الثالثة من وسائل الحساب أصابع اليد التي تتم بها عملياته المختلفة."(15) فالحساب يشتمل على معان كثيرة و منافع جليلة في البيان.

3ـ 4ـ الخـط:

هو الدلالة البيانية الرابعة عند الجاحظ" وهو يعني به كتابة الكلام و تدوينه و قد جعله في الترتيب تاليا على اللفظ مباشرة، من غير أن يكون لهذا الأخير فضل ليس مثله للبيان بالكلام المدّون، ومن فضائل التّدوين عدا ما اختص به في القرآن الكريم من ذكر وتعظيم، أنّ القلم هو أحد اللسانين،على أنّ القلم أبقى أثرا واللسان أكثر هذرا"(16) فالجاحظ بين أهمية الخط على الناحية

النفعية من تخليد المآثر،والانتقال من لغة الكلام إلى لغة الخط ، وهذا من أجل أن يتحرر الإنسان من لغة الحاضر ليفسح المجال للتواصل بين الماضي و الحاضر و المستقبل.

3 -5- النِّصبة:

هذه هي الدلالة من الدلالات الخمس عند الجاحظ وهي" الحال الناطقة بغير اللفظ و المشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السّماوات و الأرض، وفي كل صامت و ناطق،و جامد ونامٍ،ومقيم وظاعن وزائد و ناقص."(17) نفهم من هذا أنّ الجماد و الموات في الطبيعة تعبّر عن نفسها من جنسها وهي تدل على النصبة المتكلمة في صمت ،ولهذا يقول الجاحظ" قال الفضل بن عيسى بن حبان في قصصه:سل الأرض، فقل من شق أنهارك،وغرس أشجارك، وجني ثمارك،فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا."(18) فالنصبة أداة تواصل تحمل رسالة صامتة و معبّرة، لا يفهمها إلا من تأملها وتمثلها،واستنطقها بخبرته الجمالية وقدرته الفائقة في الفهم و التحليل وهذا ما يؤكده إدريس بلمليح في قوله" النصبة هي إشارة تواصل و إشارة دلالة في آن واحد- مؤسسا لسيمياء خارجة عن حياة الأفراد و المجتمع، ذات طابع تأملي فلسفي يجعلها قريبة من سيمياء **بيرس**، أكثر مما هي مشابهة لسيمياء **بريتو** أو **بارت** التي أسسها **سوسير**، مؤكدا على أنها علم مستقبلي يعمل على دراسة حياة الإشارة وأنظمتها داخل حياة المجتمع"(19)، فلذلك نجد الكُتّاب المؤلفين يجمعون بين هذه الدّلالات الخمس من أجل التصريح عن مكنوناتهم و مضامين صدورهم.

وتعتبر هذه الدلالات الخمس(اللفظ و الإشارة و الخط والعقد و النصبة)الممتدة وسائط تعبيرية بالنسبة للمتكلم لكي يعبر عن المعاني المقصودة حيث يقول" و الدلالات هي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير وعن أجناسها وأقدارها،وعن خاصّها وعامها،وعن طبقاتها في السّار والضار،وعما يكون منها لغوا و بهرجا، وساقطا مطرحا."(20) فهذه الدلالة تنتج عن اللفظ الذي هو أصغر شكل دلالي قد يكون اسما و هو لفظة تدل على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان وقد يكون فعلا وهو لفظة تدل على معنى في نفسها مقترنة بزمن، وقد يكون حرفا و هو لفظة لا تدل على معنى في نفسها، بل تدل على معنى في غيرها، غير أنّ الجاحظ يقول بمحدودية الألفاظ و لا محدودية المعاني فاللفظ هو"القول الدّال على معنى،واللغة ألفاظ تحمل المعاني التي يتفاهم بها الناس،و الألفاظ شطر اللغة الأول، و شطرها الثاني المعاني لكن المعاني لا تنتهي و الألفاظ تنتهي."(21)

4 ـ المشاكلة بين الشكل و الدّلالة:

هي "الإشارة بألفاظ مناسبة للمعنى إن كان فخما جاء المتكلم بألفاظ جزلة فخمة،و إن كان رقيقا جاء بالألفاظ سهلة سمحة أو غريبا فبغريبه،أو متداولا بمتداوله، أو متوسطا في ذلك فبمتوسطه."(22) فالقاعدة "الأولى و العامة لعلاقة اللفظ بالمعنى تقوم عند الجاحظ على مطابقة اللفظ المعنى ومؤاتاتهما معا لمقتضيات الحال و ظروف القول."(23) فالألفاظ عنده تسبق المعنى فهي تشكل جسد أو جسم لها، فاللفظ جسم و روحه المعنى،فيقصد بالمشاكلة أن يناسب

اللفظ المعنى،إن كان شريفا يكون المعنى شريفا،وإن كان اللفظ سخيفا يكون المعنى سخيفا،فإذا كان المعنى لا يوافق اللفظ يختل البيانو الإفهام،ويُعتبر الجاحظ"أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أنّ الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه،بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحضة،جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط."(24)

ويدخل في باب المشاكلة أيضا ائتلاف المعنى مع المعنى ونقصد به" أن يشتمل الكلام على معنى وسببين، فلا يمين له فيغرقه بأحدهما لمزية انفرد بها عن الآخر، قال الله عز وجل:(إنّ لَكَ أَلا تَجوعَ فيهَا وَلا تعرَى،وأنّكَ لا تَظمَؤُا فيهَا ولاتَضحَى) (طه118،119)، المعنى عدم الضحى،وكل من عدم العراء و عدم الظمأ مناسب له لكن قرن بعدم الظمأ لأنّه أنسب له"(25) فنقصد بائتلاف المعنى مع المعنى،أن يكون كل معنى كلمة في العبارة، مؤتلف مع معاني الكلمات المجاورة، أي لا يحدث بينهما تنافر ينزعج منه السامع أو المتلقي،فالكلمات المجاورة في التركيب يجب أن تكون تحتوي على معان تخدم بعضها البعض.

فيما يخص المعنى: يرى الجاحظ أنّ:

4-1- " اللفظ بدن و المعنى روح و اللفظ بلا معنى لغو"(26) فالجاحظ يبينأنّ هناك علاقة بين اللفــظ و المعنى، هذه العلاقة تشبه علاقة الجسم بالروح، فالفرق بين الإنسان الحي و الميت هي الروح، فكذلك اللفظ يحيا بوجود المعنى و يموت بغيابه أي أنّ الإنسان يتصور الشيء ثم يعبر عنه بالألفاظ، أي المعنى يسبق اللفظ، و" المقصود بالمعاني دلالات الألفاظ سواء الحقيقية أو المجازية وذلك أن يكون المعنى قد جانب الصواب أو المعقول، أو ما تعارف عليه العرب بينهم "(27) فاللفظ والمعنى متلازمان فهما مترابطان، و ليس منفصلين فهما يشبهان الإنسان و ثوبه أو الكأس و ما يحتوي فيه من شراب.

4-2- " المعاني موجودة في الذهن، و لكنها تحيا بالاستعمال و الإخبار عنها."(28) نفهم من هذا أن الإنسان يتصور المعنى في ذهنه،لكي يخرج هذه الصورة يجب عليه أن يجسدها بالألفاظ، ويحييها بالاستعمال وأنه يبني هذا الرأي في "الهيام بتصنيع الأدب على أنّ للصنعة أثرها البعيد في خلود الأدب وفي سهولة حفظه و لولاها لاندثر كما يندثر سائر الكلام المنثور."(29) والمعاني " لا تتزايد أو تتفاضل وإنما تتزايد الألفاظ حتى توهم السامع أن المزية في جانب اللفظ، راح يرد عليهم عبد القاهر الجرجاني و مفسرا عبارة الجاحظ (المعاني مطروحة في الطريق..) مبديا الغرض الذي لم يفهمه الناس منها، بأنه لما كانت المعاني لا تتضح إلا بالألفاظ، ولا سبيل إلى معرفة ترتيبها في الفكر إلا بترتيب الألفاظ في النطق تجوزوا فكنّوا عن المعاني بالألفاظ، و على هذا ينبغي تفسير كلام الجاحظ"(30) فلكل "نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، و الخفيف للخفيف والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح و الكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال."(31)

5 ـ ما يجب الحذر منه في المعنى:

5-1- " يحذر الجاحظ من تحضير اللفظ قبل التفكير بالمعنى"(32) فالمعنى بالنسبة للأديب دائما يسبق اللفظ،فيحضر من خلال الصورة الذهنية،أما إذا حضِّر اللفظ قبل المعنى فإنّه يحدث اختلال في التعبير لأن اللفظ كسوة للمعنى يتضح بوضوحه، عندما يضع الأديب اللفظة في موضعها حيث يقول الجاحظ " أنذركم حسن الألفاظ و حلاوة مخارج الكلام، فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلاًّ متعشقا، صار في قلبك أحلى و لصدرك أملا، و والمعاني إذ كسيت الألفاظ الكريمة، و ألبست الأوصاف الرفيعة، وتحولت في العيون عن مقادير صورها."(33)

5-2- يحذرنا الجاحظ من" تقليد أساليب العلماء في غير وقتها المناسب"(34)، يريد الجاحظ من هذه المقولة أنه يجب على الأديب عندما يكتب النص الأدبي لا يقلد كتابات العلماء،إلا في وقتها المناسب،أي أنّ الأديب لابد أن يقرأ هذه الكتابات و يستفيد من معانيها، من أجل توظيفها في كتاباته باستعمال ألفاظه الذي يبتكرها، أما أن يستفيد من ألفاظها ويجسد نفسها في تآليفه فهذا على سبيل الخطأ، ونقصد بقوله(في وقتها المناسب) أن الكاتب أحيانا يستعمل حكمة أو مثل، هنا يضع هذا المثل كما قيل بأسلوب القدماء.

5-3- يجب الحرص على الوضوح و التنويع حيث يقول".. فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المنعقد مفرقا في الإكثار و التكلف ،فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع، بعد أن يتبين له القول ومازال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة فالمعنى بعد مقيم على استخفائه، وصارت العبارة لغوا و ظرفا خاليا."(35) أي الجاحظ يطلب من الأديب البعد عن الغموض والحرص على الوضوح في الشعر،أي الغموض يحجب المعنى، فالعبارة هنا لم تفِ بالمعنى المقصود،وقضية الوضوح و الغموض قديمة قدم الأدب العربي.

ولذلك نجد من نقاد الأدب من يرى أن الوضوح في الأدب شرط أساسي في كل إبداع و أنّه هو الأصل، وهذا ما كان يجسد في الشعر الجاهلي لأنّه كان وسيلة للتواصل الكبرى بين الناس وحفظ لنا تاريخ العرب وأنسابهم،و قد يبدوا الشعر الجاهلي في عصرنا غامض بالنسبة لنا،أما بالنسبة لهم فكان واضح المعاني،و هناك من يرى من النقاد أن الغموض في الشعر يزيده بهاءً و رونقا تجعل المتلقي لا يفهم معناه إلا بفك شفراته، وطول النظر فيه، وبذل جهد، فهذه المشاق تجعل المتلقي يحس باللذة الفنية حيث يقول بدوي طبانة " ومن علماء العرب و نقادهم من ينحتون هذا في إيثار السهولة والوضوح والتيسير على متلقي الأدب في إدراك فحوى الكلام، ويجعلون من شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحا ظاهرا،جليا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه و لا في فهمه، و سواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر في منظوما أو منثورا."(36)

هذا الرأي يوافق الجاحظ في تيسير وسهولة إبلاغ المعنى للمتلقي، ثم يوضح بعد هذا أنّ" الوضوح يتعارض في كثير من الأحيان مع الفنية ومظاهر الإبداع ، و مثيرات الإعجاب التي تميز

الفن من سواه و أنّ تذوق الأدب محتاج إلى قدر من التأمل الذي يفضي إلى إفادة المعنى ،و التأثير بالتجارب و المشاركة في العواطف والانفعالات إذا وجد القارئ أو المستمع نفسه فيما يقرأ و فيما يسمع ، بعد التّدبر و المقايسة بين المشاعر والأحوال."(37)

نفهم من هذا القول أنّ المتلقي إذا فهم المعنى بعد طلبه و بذل جهد و الشوق له يكون أحلى في نفس المتلقي وتشكل قمة اللذة الحسية له، وهناك من نظر إلى ظاهرة الغموض نظرة أخرى حيث قسم الغموض إلى قسمين:" الغموض الإيجابي، والغموض السلبي فالأول مقبول بعد سمة ذاتية في الفن التصويري عامة ، أما الثاني فقد انقسم الناس حوله بين رافض ومستحسن ، الرافضون يحتجون بكونه يعرقل التواصل بين الباث والمتلقي والآخرون يرونه من علامات التفوق الفني."(38) فالأديب الذي يستطيع أن يوظف الغموض في النص الأدبي يملك قدرة و تفوق على غيره من الأدباء الذين ليس لهم حظ في هذا الغموض، وقد ذهب الدكتور عز الدين إسماعيل إلى القول:" ربما ارتبط الغموض بطبيعة الشعر ذاتها حتى ليمكن القول في بعض الأحيان إنّ الشعر هو الغموض، وعند ذاك يكون شيوع ظاهرة الغموض في الشعر الجديد دليلا على أنّ هذا الشعر قد حاول التخلص من كل صفة ليست شعرية والاقتراب من طبيعة الشعر الأصلية ."(39)

6ـ ما يجب الحرص عليه في اللفظ و المعنى:

1-6. يوصي الجاحظ" بحسن الألفاظ و حلاوة مخارج الكلام ، لأنها تجعل المعنى يسبق إلى القلب"(40) فهنا أشار إلى أن الأديب ينبغي عليه أن يحسن الألفاظ المختارة في التعبير الأدبي وأن تكون مخارجها سهلة غير مستعصية قد ينفر منها السامع فالاختيار الحسن يجعل المعنى يسبق اللفظ إلى القلب ، أي أنه يعيب على الأديب الألفاظ الصعبة أو الغريبة " و لذلك وجب على الأديب أن ينتقي و يختار أفضل الألفاظ وتركب التركيب المتلائم المتشاكل وتستقصي بأجزاء العبارات التي هي الألفاظ الدالة على أجزاء المعاني المحتاج إليها حتى تكون حسنة إعراب الجملة والتفاصيل على جملة المعنى وتفاصيله ."(41)

2-6ـ يوصي "باستعمال الألفاظ العذبة، لأنها تجعل المعنى حلوا بقدر ما نقدم له من زخرفة في لفظه"(42) فيبتعد الأديب من الألفاظ الخشنة بل يختار للمعاني زخرفة من الألفاظ التي تجعل المعنى حلو بالنسبة للمتلقي ،" فالمعنى يستدعي ما يناسبه من اللفظ و يعبر عنه أحسن تعبير، لذلك قد تروقك كلمة في كلام وتستثقلها في كلام آخر لهذا فالتفاضل لا يقع في الألفاظ مفردة و إنّما في تركيبها لأنّ التركيب أعسر وأشق، فكم من المعاني الفاخرة ما يشوّه من حسنه بذاذة لفظه و سوء العبارة عنه "(43) فحسن اللفظ وحسن العبارة تجعل المعاني فاخرة و مؤثرة.

3-6ـ" لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ فالمهم إصابة المعنى."(44) فالجاحظ يقصد من هذا أنّ الأديب يجب عليه أن يضع اللفظة في موضعها على حساب المعنى ، بحيث يحدث هناك تشاكل و تلاؤم بين اللفظ و معناه فاللفظ يؤدي حق معناه، لأن اللفظ خادم للمعنى ، فإذا كان المعنى دقيقا وجب اختيار اللفظ الدقيق، وإذا كان المعنى واسعا وجب توظيف لفظا واسع

المعنى، فاللفظ و المعنى يجب أن يسيرا في خط متواز ، و يؤكد هذا الكلام ابن أبي الإصبع المصري حينما " تحدث عن طبيعة العلاقة التي تحكم اللفظ بمعناه فخلص إلى ضرورة التلاحم بينهما، فإذا كان المعنى قريبا قحا كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان المعنى مولدا كانت الألفاظ مولدة ، و إذا كان المعنى متوسطا كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان غريبا كانت الألفاظ غريبة، وإذا كان متداولا كانت الألفاظ معروفة مستعملة، وإذا كان متوسطا بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك."(45)

فوجوب الالتحام بين اللفظ و معناه مطلوب في الإبداع الأدبي ، لأن من عناصر الإبداع اللفظ والمعنى فإذا أجاد الأديب توظيفهما، فإنّ أدبه سيكون في القمة، وإذا كان هناك خلل بين اللّفظ ومعناه ظهر هذا الخلل في الإبداع الأدبي و نتج عنه نفور المتلقي منه فالأديب ينبغي أن " يعد لكل معنى ما يليق به و لكل طبقة ما يشاكلها حتى تكون الاستفادة من عقله في وضعه الكلام مواضعة أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه و إبداع نظمه."(46) فأفضل الكلام ما جمع بين اللفظ الحسن والمعنى الجميل فنهتم باللفظ كما نهتم بالمعنى،فالجاحظ يرى أن أصل العلاقة بين اللفظ والمعنى هي المطابقة بينهما حيث يقول" لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ،فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك."(47)

4.6- يوصي الجاحظ" بإظهار ما في الضمائر بأسهل القول،والتعبير عن المعنى باللفظ القريب السهل المأنوس لأنّ مدار الأمر على فهم المعاني"(48) أي أن نعبّر على ما يجول في أنفسنا من المعاني بالعبارات السهلة البسيطة المستعملة في المجتمع الذي نعيش فيه،وتكون بعيدة عن التعقيد اللفظي و نقصد به التنافر و التضارب بين اللفظة وجاراتها في التركيب، و قد عده البلاغيون عيب من عيوب بلاغة الإنسان،إلى جانب التناقض في التعبير بحيث يصف شيئا حسنا،ثم يرجع إليه مرة أخرى في التعبير و يذمه فهنا تختل البلاغة.

7- خاتمة:

المعاني كما يراها الجاحظ مشتركة بين طبقات الناس و على المتكلم أن يخرجها في ثوب جميل من خلال البناء الشعري ، وهذا ما يريده المتلقي لأنّ من علماء الأسلوب من ينظر إلى النص الأدبي من زاوية المتلقي باعتبار المتلقي موجود في النص بقوة مما يجعل الباث توظيف عناصر لغوية من شأنها التأثير فيه، فبعض النقاد يعتبر الظاهرة الأدبية ليست النص بما فيه من ألفاظ ومعان فقط، بل هي مجموع النص و القارئ من خلال التغذية الراجعة تنتج عنه فالمتلقي يشكل" سلطة تنضاف إلى سلطة النص و قوانين الكتابة و اللغة لتزيد من معاناة الأديب و تجعله يفكر في أكثر من اتجاه وكأنه لا عن عوالمه الخاصة به ، وإنّما عن العوالم الخاصة بالمتلقي."(49) أي أن النّص الأدبي في العصر الحديث أصبح ينظر إليه بالدراسة من ثلاث زوايا مختلفة، من زاوية المبدع باعتبار النص مرآة عاكسة له، و من زاوية المتلقي باعتباره أنّه يراود المبدع منذ البداية ،و من زاوية النص في حد ذاته، باعتباره أنّه كتب في ذاته و لذاته، وهذا من أسس المنهج البنيوي في النقد العربي الحديث.

8_ المصادر و المراجع:

1-أحمد بيكس، الأدبية في النقد العربي القديم من القرن الخامس حتى القرن الثامن الهجري، دار علم الكتب الحديث، ط1 إربد، الأردن، 2010.

2-الأخضر جمعي، اللفظ و المعنى في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2011.

3-إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ،دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984.

4- بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، 1984.

5-الجاحظ، البيان و التبيين،تح عبد السلام هارون،مطبعة الخانجي،مصر،1975م،1395هـ،ج1.

6-الجاحظ، الحيوان،ج3،تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون،دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان،1388هـ ،1969.

7- حسين جداونه،دراسات في النقد الأدبي القديم ، دار اليازوري،ط1،2011،عمان،الأردن.

8- داود غطاشة الشوابكة و محمد أحمد صوالحة، النقد العربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري،دار الفكر،ط1، 2009، عمان ، الأردن.

9- صالح بلعيد،أساليب التعبير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر،(دط) (دت).

10- عراس فيلالي، مسارات النقد القديم(عرض لمراحل تطور النقد العربي و أبرز قضاياه، منشورات فاصلة،ط1، 2013،قسنطينة، الجزائر.

11-فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين،مطبعة أبناء وهبة حسان،2005، مكتبة الأنجلو مصرية.

12-محمد بن يوسف أطفيش، ربيع البديع، تقديم محمد زمري، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2015.

13-مريم محمد المجمعي،نظرية الشعر عند الجاحظ،ط1،(2010/2009)،دار مجدلاوي،عمان، الأردن.

14-ميشال عاصي،مفاهيم الجمالية و النقد في أدب الجاحظ، ط2، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان،.

9ـ الإحـالات و الهـوامـــش:

(1) الجاحظ، الحيوان،ج3،تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون،دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان،1388هـ ،1969، ص132.

(2) مريم محمد المجمعي،نظرية الشعر عند الجاحظ،ط1،(2010/2009)،دار مجدلاوي،عمان، الأردن،ص133.

(3) فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين،مطبعة أبناء وهبة حسان،2005، مكتبة الأنجلو مصرية، ص192.

(4)الجاحظ، البيان و التبيين،تح عبد السلام هارون،مطبعة
الخانجي،مصر،1975م،1395هـ،ج1،ص83.

(5) نفسه،ج2، ص7و8.

(6)مريم محمد المجمعي، نظرية الشعر عند الجاحظ، مرجع سابق، ص136.

(7) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص75.

(8) نفسه،ج1،ص145.

(9) نفسه، ج1، ص92و93.

(10) إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ،دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984، ص134.

(11) نفسه ،ص123.

(12) نفسه، ص123.

(13) نفسه، ص123.

(14) ميشال عاصي،مفاهيم الجمالية و النقد في أدب الجاحظ، ط2، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، 1981،ص50.

(15) إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ،ص128.

(16) ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية و النقد في أدب الجاحظ،ص48.

(17) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص81.

(18) نفسه، ص81.

(19) إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، مرجع سابق، ص122.

(20) الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1 ،ص76.

(21) صالح بلعيد،أساليب التعبير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر،(دط) (دت).

(22) محمد بن يوسف أطفيش، ربيع البديع، تقديم محمد زمري، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2015،ص91.

(23) ميشال عاصي،مفاهيم الجمالية و النقد في أدب الجاحظ، مرجع سابق ،ص168.

(24) نقلا عن، الأخضر جمعي، اللفظ و المعنى في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2011،ص40.

(25)محمد بن يوسف أطفيش، ربيع البديع،مرجع سابق ،ص92.

(26) محمد بن عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، ص84.

(27) عراس فيلالي، مسارات النقد القديم(عرض لمراحل تطور النقد العربي و أبرز قضاياه، منشورات فاصلة،ط1، 2013،قسنطينة، الجزائر،ص33.

(28) محمد بن عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، ص85.

(29) داود غطاشة الشوابكة و محمد أحمد صوالحة، النقد العربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري،دار الفكر،ط1، 2009، عمان ، الأردن ، ص76.

(30) الجاحظ، الحيوان ،ج3،ص39.

(31) نفسه، ص130.

(32) محمد بن عبد الغني المصري ، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي ، ص97.

(33) الجاحظ، البيان و التبيين ،ج1، ص154.

(34) محمد بن عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، ص98.

(35) نقلا عن نفس المرجع ، ص97.

(36) بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، 1984،ص121.

(37) نفسه ، ص126.

(38) أحمد بيكس، الأدبية في النقد العربي القديم من القرن الخامس حتى القرن الثامن الهجري، دار علم الكتب الحديث، ط1 إربد، الأردن، 2010، ص169.

(39) نفسه، ص196و170.

(40)محمد بن عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد العربي ، ص100.

(41) نقلا عن أحمد بيكس، الأدبية في النقد العربي القديم ،مرجع سابق، ص126.

(42) محمد بن عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد العربي، ص100.

(43) نقلا عن أحمد بيكس، الأدبية في النقد العربي القديم ، ص125.

(44) محمد بن عبد الغني، نظرية الجاحظ، مرجع سابق، ص101.

(45) نقلا عن أحمد بيكس، الأدبية في النقد العربي القديم ، ص126.

(46) نقلا عن ،حسين جداونه،دراسات في النقد الأدبي القديم ، دار اليازوري،ط1،2011،عمان،الأردن،ص12.

(47) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1،ص115.

(48) محمد بن عبد الغني، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، ص102.

(49)أحمد بيكس ، الأدبية في النقد العربي القديم ، مرجع سابق ، ص53.